

لظهور عمل لافت للنظر ، فلا بد أن يتلمسها في الخيال ! إن الأساطير والملاحم الكبرى التي تُعرف في التاريخ ، إضافة إلى تلك الحكايات التي نسجتها ذاكرة الشعوب ، في تعددية منابعها الفكرية ، كما في حال ( ألف ليلة وليلة ) ومن ثم فإن السير والمغازي التي تتميز بحضور قوي للخيال أو المتخيل فيها تثبت ، بدون شك ، إلى أي مدى كان ويكون الخيال مؤثراً في النفس البشرية ، والخيال ملهماً في الأعمال الإبداعية .. ليس هذا فقط ، بل إن الكتب الدينية المقدسة ، هي ذاتها تعتمد على طاقة خيالية ، وتتميز بخيال رحب يتخللها - وبامتياز - وخاصة عندما يتعلق الأمر بتصوير حالات النفس البشرية ، ورغباته وحقيقته ! ولا نعتقدنا ( خياليين ) إذا قلنا إن الله نفسه ( وبالمعنى الإنطولوجي ) هو المدشن الأكبر للخيال - فالخيال يشكل العامل المساعد الأقوى ، وخاصة فيما يتعلق بالفضايا الماورائية ، ومسائل الثواب والعقاب ! فالقرآن على سبيل المثال ، لا يمكن قراءته ، واستيعابه ، والتواصل مع سوره وآياته ، دون استعانة بالخيال . ثمة حضور مشع للخيال كقوة مؤازرة للتفاعل مع المعاني الكبرى والكامنة في الآيات القرآنية ! وفي ضوء ذلك فإن مفهومي الجنة والنار ، لا يمكن استيعابهما دون خيال - الخيال الاجتماعي هو الذي يعلمنا بذلك ! ولا يتوقف الأمر عند هذه النقطة ، بل يعمقها ، ويتجاوزها في آن - فإذا كان الخيال المنفذ الأعظم لتصور الكون ، ومحاولة التفاعل والتجاوب مع مثيراته بقصد أنسنته ، أو جعله مألوفاً ، فإن ذلك يعني بالمقابل أن الإنسان ، ليس بوسع العيش دون خيال ، كون هذا يشكل العنصر الأهم الذي يتجذر في داخله ، ويلهمه قوة تواصل مع المحيط الخارجي ، قوة ذاتية خاصة به ، فمن ناحية أخرى ، يمكن أن نرى علاقة الخيال بما وراء حدود الوعي الإنساني الملموس ، فمن خلاله يستطيع وعلى أكثر من صعيد مخاطبة المجهول ، حتى لو عجز عن الإحاطة به ، ما دام المجهول يشكل فضاء أوسع من كل ما يعرفه ، بل الذي يعرفه ، يكون لعنصر الخيال فيه دور كبير ، ويظهر - بخصوص النقطة الثانية ، وبالمعنى الدلالي أن الله الذي طرد الإنسان من جنته ، ثم حرمه من متعة الخلود ، لم يجرده من خصيصة أساسية ملهمة وفاعلة ، وهي ( الخيال ) - فلا يني - وباستمرار يعيد